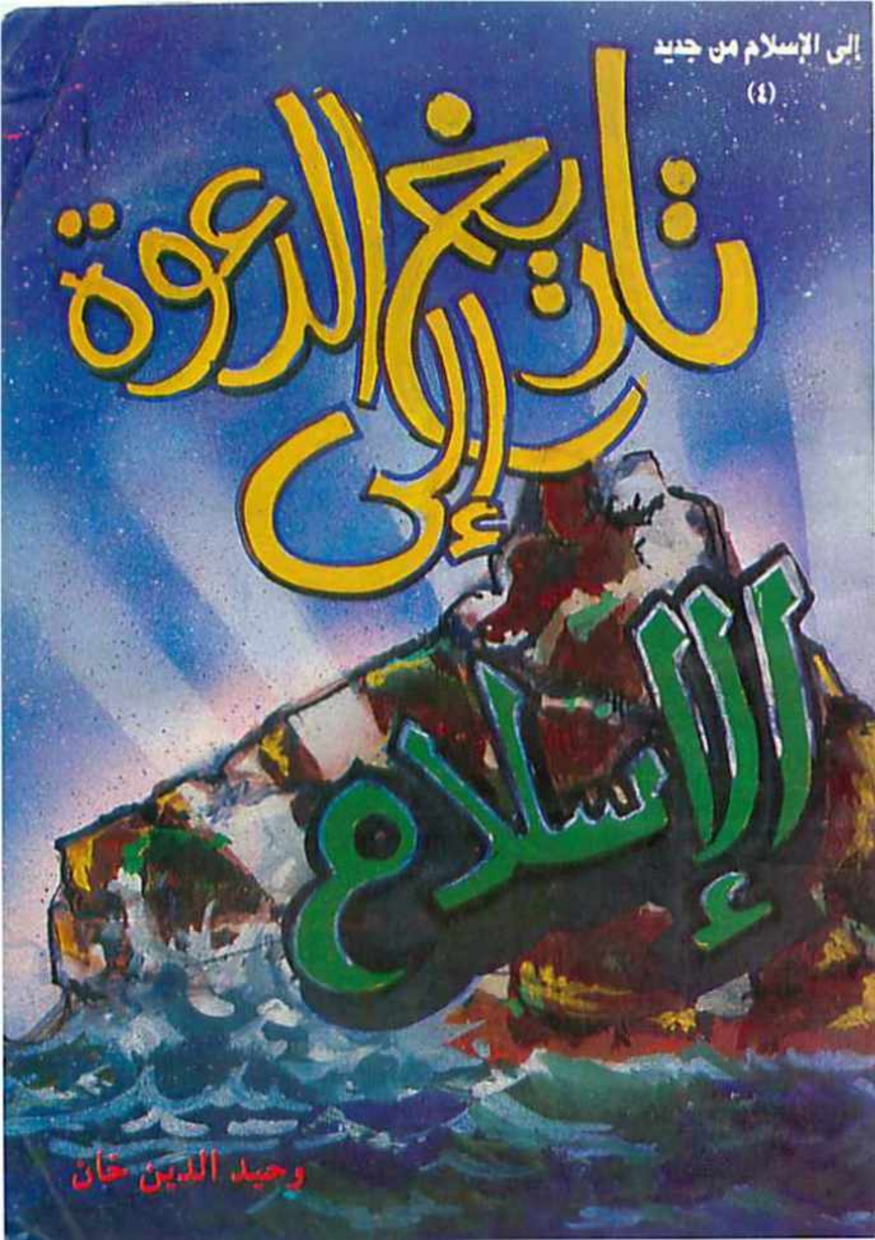

إلى الإسلام من جديد
(٤)
تاريخ الدعوة إلى الإسلام
وحيد الدين خان

تاريخ الدعوة إلى الإسلام

وحيد الدين خان

الطبعة الأولى

١٩٩٢م - ١٤١٣هـ

- القاهرة -

تاريخ الدّعوة إلى الإسلام

المسلمون (كأمة) ينتمون إلى خاتم النبيين ﷺ . إنّ هذه الحيثية للمسلمين هي التي تحدد ماهية المسئولية التي نيطت بهم في هذه الدنيا بصفتهم « أمة » وتلك المسئولية هي قيامهم بعملية الدعوة إلى الله . تلك العملية التي كان الأنبياء والرسل يُبعثون من أجل الاضطلاع بها في العصور الماضية . ولا شك أن سلسلة النبوة قد انقطعت بعد وفاة النبي العربي ﷺ ولكن العمل النبوي لم ينقطع ، وما زال مستمراً ومطلوباً بالتمام . والحقيقية هي أن المسلمين هم في مكان النبوة بعد انقطاعها ، ومن هنا فلا يمكن أن يتحقق وجودهم « كأمة » بأيّ عمل آخر غير الاضطلاع بالعمل النبوي .

ما هو العمل النبوي ؟ إنه إيصال رسالة الله إلى عباده ، وإبلاغ دعوة التوحيد إلى الغارقين في الشرك

والوثنية ، وإنذار الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا - وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً - باليوم الآخر الذي لا ريب في قدومه ، وإطلاع كل فرد من البشر على أنه ليس حرّاً طليقاً يتصرف في حياته كيف يشاء بل إنّه تحت أوامر الله تعالى وهو مسئول عن تفيذها ، فعليه أن يعيش حياة ملتزمة منضبطة ، وليس له أن يعيش حياة متحررة ومنطلقة من كل القيود والحدود ، وبإيجاز إن العمل النبوي يتلخص في تبليغ ذلك العلم الرّباني المحفوظ في صورة الكتاب والسنة إلى كافة البشر بطريقة كاملة مكتملة حتى لا يجد أحد منهم فرصة في الآخرة لأن يقول إنه كان غافلاً عن هذا ، وأن الدعوة لم تصل إليه .

هذه هي الفريضة الأصلية التي تعود مسئوليتها على الأمة الإسلامية بحكم مركزها ومكانتها ، ولكن - للأسف الشديد - أن هذه الفريضة الكبرى قد أهملها المسلمون اليوم أشدّ إهمال ، وتقاعسوا عن تأديتها أكثر من أيّ شيء آخر ، وما من سبب لهذا الإهمال والتقاعس الإجرامي

سوى أن المسلمين المعاصرين قد أخذت مشاكلهم القومية بمجامع قلوبهم ، وسيطرت على أذهانهم ، فنتج عن ذلك أن قضية الدعوة وتبعاتها غابت واحتجبت عن أنظارهم .

اتفق لي أن قابلت مسلماً كان يتمتع بثقافة عالية – أثناء إحدى رحلاتي إلى العالم العربي – وخلال حديثي معه قلت له : « إنّ الواجب الحقيقي الملقى على عاتق المسلمين هو أن ينهضوا بإبلاغ رسالة الإسلام إلى الأمم غير المسلمة » . فأجابني حالاً : « وكيف يمكن ذلك !! فإن المسلمين المعاصرين اليوم تنوء كواهلهم بأعباء المشكلات التي تخصهم وإنهم لم يتمكنوا من تسويتها ، والتغلب عليها حتى يجدوا الفرصة للقيام بنشر الدعوة فيمن دونهم من الأمم .

إن الإجابة السابقة الذكر تدل على تلك الحالة النفسية التي دفعت المسلمين في العصر الماضي إلى أن ينبذوا عملية الدعوة نبذاً كليّاً ، إن ما استحوذ على مشاعرهم ، وأخذ منهم كل مأخذ إنما هي مشاكلهم الدفاعية ، وأكبر

ما يهمهم يتمثل في زعمهم هذا : « إن كيانهم القومي معرض للخطر » . ولذا فكل عنايتهم وطاقاتهم ارتكزت وتمحورت حول خطوط الدفاع ، وقد استولى هذا الهم عليهم حتى أفقدهم الوعي والشعور بمسئوليات الدعوة ، ومما يبعث على الأسف أن فقدان الوعي الصحيح بالمسئولية أدّى بالكثير من المسلمين إلى أن أضفوا عنوان « الدعوة الإسلامية » على ممارساتهم الدفاعية .

إن هذا التفكير لا يمتّ بأية صلة إلى الإسلام ، ولا إلى القرآن . فمن وجهة القرآن أنّ قضية حماية المسلمين هي الأخرى منوطة بعملية الدعوة نفسها ، فلئن قام المسلمون بعملية الدعوة إلى الله فإن كيانهم القومي مضمون الحماية من قبل الله تعالى . ولئن لم يقوموا بعملية الدعوة إلى الله ، فلا ضمان لحماية كيانهم القومي البتة ، وإذا كان تاريخ العهود الإسلامية الماضية شاهداً على صدق الأمر الأول ، فإن تاريخ العصر الحاضر للمسلمين يشهد على صدق الأمر الثاني .

الحماية عن طريق الدعوة :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وبخصوص أسباب النزول لهذه الآية الكريمة ، وردت روايات عديدة في كتب الحديث والتفسير ، منها ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « **لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً ، وعرفت أنّ من الناس من يكذبني فأنزل الله-تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك ﴾** » وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت هذه الآية ، فأخرج رأسه من قُبة أدم وقال : « **انصرفوا أيّها الناس ! فقد عصمني الله** » (صفوة التفاسير ، المجلد الأول ، ص ٣٥٥) .

فمن هذه الآية يظهر بجلاءٍ أن سرّ « العصمة من

الناس » إنما هو يكمن في « الدعوة إلى الله » . إذ كانت الظروف قاضية بحراسة الرسول وكلائه أما الآن فليس هناك حاجة إلى إفراد قطاع من الجهد لهذا الأمر ، لأن عملية الدعوة هي نفسها قد تكفلت له بالعصمة أيضاً ، وإن موعود العصمة من قبل الله في الأصل كان لرسوله بصورة خاصة ، ولكنه يشمل أمته أيضاً تبعاً له . إن هذه لحقيقة ذات أهمية أساسية وينبغي أن نستعرض ونعالج جميع شئوننا وقضايانا في ضوء هذه الحقيقة ، فإذا ما أحيط أهل الإسلام بخطر يعكس مشكلة العصمة والحماية ممن دونهم ، فلا يكون له من سبب سوى أن الأمة قد أهملت فريضة الدعوة إلى الله ونبذتها ، وإذا ما نهضت الأمة بفريضة الدعوة إلى الله فلتستيقن أن الله قد ضمن لها العصمة من الأخطار والتهديدات الخارجية وليست هناك حاجة تبعث إلى إفراد قطاع من الجهد لمجابهتها ... بل التركيز الكلي وبذل الجهد ينبغي أن يتوجه إلى الدعوة إلى الله ، وأما فيما يتعلق بالمخاوف والأخطار الأخرى ، فالأخذ بالتربص والصبر ، لأن أشباحها وظلالها المخيفة ، تأخذ تتقلص

وتنحسر وتتلاشى تلقائياً فيما بعد . وتجنباً لسوء الفهم ينبغي أن نشير هنا إلى أن المراد بالدعوة في هذا المقام هو نشر الإسلام بين غير المسلمين ، وبعبارة أخرى إيصال رسالة الله إلى عباده الذين لم يدخلوا بعد في دائرة طاعة الله تعالى ، وحيثما ورد لفظ الدعوة أو التبليغ في القرآن الكريم فإنما ورد في هذا المعنى ، أي إيصال الدعوة إلى غير المسلمين ، أما ما يجب علينا حيال جماعة المسلمين أنفسهم ، فإن القرآن يذكره بكلمات : التذكير ، والإصلاح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وما إلى ذلك ..، ويمكن لنا أن نطلق اسم الدعوة والتبليغ على ممارسة الإصلاح الديني داخل المجتمع الإسلامي على سبيل المجاز إلّا أن العملية التي سميت بالدعوة حقيقة إنما هي « عملية إبلاغ الأمم غير المسلمة برسالة الله » دون الإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم .

وقد ذكر القرآن قصة « رجل مؤمن » في زمن سيدنا موسى عليه السلام ، كان من أمراء فرعون ،

آمن بالله ولم يزل يكتم إيمانه حتى كان اليوم الذي أصدر فيه فرعون قراره النهائي في شأن موسى ، وهو أنه سيقتله ويقضي على ما جاء به .. فلم يتمكن « الرجل المؤمن » من الصبر والسكوت على الحق ، فقام محامياً على موسى عليه السلام ، وكلّم فرعون وأمراءه بأسلوب جعل كلامه خطاباً دعوياً بكل معاني الكلمة .

وهذه المرحلة كانت في غاية الحرج والخطورة ، فإن فرعون كان قد أعلن عداوته مع موسى صراحة ، فكان طبيعيّاً أن يصبح هو معادياً كذلك لمن أراد موالاة موسى والقيام معه ، ويعاملهما بنوع واحد من التعذيب والمكر السيّء ، ولكن « الرجل المؤمن » لم تخوفه المخاوف ، ولم تستعبده المصالح الأخرى ، وأبى إلّا أن يؤثر المجاهرة بالحق وتبليغه على كل ما سواه . وبعد أن نقل القرآن خطاب « الرجل المؤمن » قال : ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** ﴾ . إن هذه الآية دلالة واضحة على أن الذي كان قد صار درعاً واقياً للرجل المؤمن

« من سيئات ما مكروا » هو « دعوة الحق » . فإن الرجل المؤمن لم يكن لديه شيء من ثروة أو رأسمال سوى معرفة الحق ودعوته ، بينما كان فرعون عدوه ، يملك كل أنواع القوى المادية ، ولكن « الرجل المؤمن » حيثما قام بدوره كداع إلى الحق ، تغمده الله بعنايته وحمايته ، ولم يتمكن فرعون - رغم كل طاقاته - من تحقيق نواياه المشئومة ، وإنفاذ ما مكر به من سيئات .

إن عصمة القائمين بعملية الدعوة إلى الله موعود إلهي حق - لا ريب فيه - ولكن تحقيق هذا الموعود متوقف على القيام بعملية الدعوة الحقيقية ، دون أي عمل سواها ، ولو تشاغلنا بأي عمل آخر ثم أضفينا عليه عنوان « الدعوة إلى الله » فليس لنا أن نتوقع أبداً أن وعد الله سيتحقق ليعصمنا مما نتعرض له من أخطار ومهالك في طريقنا .

شهادة التاريخ :

التاريخ الإسلامي غني بالأمثلة والشواهد مما يؤكد

هذا التصريح القرآني بصورة مذهلة ، فمنذ القرن الاوّل إلى ما تلاه من القرون حدث غير مرّة أن أهل الإسلام تعرضوا لأخطارٍ وتهديداتٍ أثارت لديهم مشكلة الحماية من غير المسلمين ، وإنّ الشيء الذي أتى بحل هذه المشكلة في كل مرة لم يكن سوى قوة « الدعوة إلى الله » .

والحماية عن طريق الدعوة تتمثل في صور شتى ، فلو كان أهل الإسلام قد بلّغوا رسالة الله بأقصى وأقوى ما يملكون من القدرة والوسائل ولكن المدعويين - بالرغم من ذلك - أبَوْا إلا التمسك بالعناد والمكابرة والتشدد في الجحود والإنكار ، فإن الأمر في مثل هذا الوضع يرتبط مباشرة بذات الله تعالى فيأتي عند ذلك نصر من قبل الله بصورة غير عادية ، وبالتالي يصبح أتباع الحق على أعدائهم ظاهرين .. وما حدث مع سيدنا هود وسيدنا لوط عليهما السلام كان مثالاً لهذا النوع من النصر والحماية .

إن دين الله هو في الحقيقة صدى لفطرة الإنسان نفسه ، وإن قيامك بالدعوة إلى الحق يعني كأنك تطرق

باب القلب الإنساني ، وعلى هذا فلو كان الإنسان قد رُزق شيئاً من الجدية ، فإن قلبه لا يملك إلّا أن يستجيب لنداء فطرته ، ويتساوق معه ، وهو وإن لم يقبله بصورة رسمية ، فإنه على كل حال ، يضمر كل الحب والنصح لأولئك الذين يكلمونه بما يخفق به فؤاده بذاته ، وإنه يأخذ في الإحساس بأن هؤلاء خليقون بأن يُناصروا – على الحد الأدنى – على الصعيد الإنساني والأخلاقي . ومثال ذلك قصة يوسف الصديق عليه السلام مع الملك في مصر .

والصورة الثالثة للحماية عن طريق الدعوة والتي يمكن أن يقال بأنها الصورة النهائية تتمثل في أن يتأثر المدعو بما يدعو إليه الداعي لدرجة تجعله مستعداً لأن يقبله ويؤمن به ، وقد تكرر حدوث هذه الصورة الأخيرة أيضاً على امتداد التاريخ الإسلامي .

وعندما تحدث هذه الصورة فإن المشاكل الطارئة هناك ، وبكل أبعادها وأنواعها ، تأخذ – على أعقاب ذلك – طريقها إلى الانتهاء والتلاشي تلقائياً ، وقد حدثت

مع رسول الله ﷺ هذه الصورة الأخيرة . فكان أكمل مثال من هذا النوع مما حدث معه عليه الصلاة والسّلام .

اعتراف :

لقد اعترف توماس كرليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) بما في الدعوة الإسلامية من قوة تسخيرية حيث قال : « ... كثيراً ما دار على الألسنة وتردد ، أن محمداً نشر دينه بالسيف ، السيف حقّاً ، ولكن كيف لك أن تجد هذا السيف ! فإنه ما من فكر محدث إلا كان في أول أمره منحصراً بالضرورة في أقلية فرد واحد ، فهو ينشأ أول ما ينشأ في مخ إنسان واحد فحسب ، ولا يوجد ثمة غير واحد في الدنيا بأكملها ، من يؤمن بذلك ، فرد واحد مقابل بني الإنسان أجمع ، تُرى - والحالة هذه - لئن قام ذلك الرجل متوشحاً السيف وأخذ يمارس الدعاية لفكره ونشر عقيدته فهل تراه يحصل على شيء ؟

هذا ، وفيما يلي من صفحات نشير إلى بعض الشواهد من التاريخ الإسلامي تتضمن دلالة واقعية على

الاعتبار التسخيري للدعوة .

التخطيط الإنساني والتدبير الربّاني :

مكث رسول الله ﷺ في مكة نحو ثلاث عشرة سنة ، وفي أواخر أيامه بمكة دبر المشركون خطة للقضاء عليه وعلى ما جاء به بصورة نهائية ، وقد تشعبت في شأنه الآراء بين أشرافهم وذلك ما ذكره القرآن في الآية التالية :

﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

إن الخطة التي دبرها المشركون لإبعاد الرسول عن ساحتهم كانت تتحدد في : الإثبات (الأسر) ، أو القتل ، أو الإخراج ، ولكن الآية تخبرنا بأن الله تعالى أحبط تلك الخطة الجائرة بتدبير أفضل وإتقان أكثر ، فماذا كان ذلك المشروع الإلهي ؟ وهنا يفيدنا التاريخ أن الآونة المروعة تلك التي كان مشركو مكة يتداولون فيها التدابير للقضاء عليه ﷺ ، في الآونة نفسها بُعث برجلين مسلمين من مكة

إلى المدينة ، فشرعا هناك في نشر رسالة الإسلام مما أسفر عن دخول عدد كبير من أهالي المدينة في حظيرة الإسلام ، وقد أخذ عدد أولئك المعتنقين للإسلام يتزايد على مرور الأيام ، حتى أخذوا طابع الأغلبية الساحقة في المدينة . فلم يلبث رسول الله ﷺ بعد ذلك أن هاجر من مكة ووصل إلى المدينة بسرية تامة .. وذلك ما ينطوي عليه قول النبي ﷺ : « **أمرتُ بقرية تأكل القرى** » . إنّ الآية تدل دلالة واضحة على ما يوجد من الفارق النوعي بين التخطيط الإنساني والتدبير الرباني ، فهي تفيد أن التخطيط الإنساني إنما يسير على صعيد الأسر ، والقتل ، والإخراج . بينما التدبير الرباني يسير على صعيد تسخير القلوب عن طريق الدعوة والتبليغ . إن تفكير الإنسان يخطّط لإنهاء عدوّه ، وتجميد نشاطاته ، أو إخراجه من مقره ، أو قتله وهكذا .. إلا أن الله ينتهج طريقاً يختلف عن هذا كل الاختلاف ، إنه يمكّن لعباده في القرى بوصفهم مبلغين عنه ودعاةً إلى دينه ، ثم إنه تعالى يشرح صدور الناس لرسالته فعن هذا الطريق لا يطول الأمد حتى تأخذ مجموعة حيوية

من الناس في الانضمام إلى دين الحق ، والانصهار في بوتقته مما يزيد دين الحق قوة وعزة لدرجة تجعل أتباعه في حصانة حصينة ، ومنعة منيعة ، عن كل مكر يدبره الأعداء للاعتداء عليهم .

كَلمةٌ مُسَخَّرةٌ :

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما حضرت وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ مشى من أشراف قريش إليه ، وقالوا : « .. قد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ لنا منه ، وخذ له منا ليكفّ عنا ، ولنكفّ عنه .. » فبعث أبو طالب إلى رسول الله فجاءه . فقال له : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قريش ، قد اجتمعوا إليك فقل لهم ماذا تريد منهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **نعم كلمة واحدة ، تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم** » . فقالوا : وما تلك الكلمة ؟ فقال : « **تقولون لا إلـه إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه** » (السيرة النبوية لابن كثير) .

إن النبي ﷺ عندما قام بدعوة الحق في مكة ، كان أقلية ، بل كان وحيداً في العالم ، ولكن سرعان ما اجتذبت كلمته ، أو بلفظ آخر ، قوة فكره أصحاب العقول الواعية والقلوب السليمة من العرب ، ورغم أنه قد واجه معاكسات عنيفة في بدء أمره ، ولكن مما لا يمكن إنكاره كذلك أن رسالته – مع جميع العراقيل والعقبات التي وضعت في طريقها – كانت تجمع معها نوعاً من الجاذبية التي تستميل أولي الفكر والألمعية والجدية من الناس .

١٠٢ ومما حدث في أوائل العهد المكي – وهو مما لا علاقة له مباشرة بما نحن بصدده – أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة حاجاً ، وقد كان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه ، فاجتمع به رجال من أشراف قريش ، وحذّروه من رسول الله ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه واصفين له الرسول بأنه ساحر ، فلما غدا الطفيل بن عمرو إلى بيت الله ، وعلم أن رسول الله قائم يصلي عند الكعبة حشا أذنيه قطناً ، خوفاً من أن يبلغه شيء من قوله ، وهو لا

يريد أن يسمعه . ولكنه بعد إذ راجع موقفه من هذا الأمر ، قال في نفسه : إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما الذي يحوجني إلى أن أسد أذنيّ بالقطن ؟ لا ، بل إني لأسمع من محمد ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته . قال : فلقيت رسول الله ﷺ ، وقصصت عليه ما جرى بيني وبين قومه قال : ثم قلت : اعرض عليّ أمرك ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليه شيئاً من القرآن ، قال : فلا والله ، ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه . وعند ذلك أسلم الطفيل بن عمرو وشهد شهادة الحق .

الهجرة إلى الحبشة :

كانت مكة يسودها الشرك من أقصاها إلى أقصاها ، إذ بدأ فيها رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى التوحيد فصار الناس يعارّضونه ، ويذيقون من اتبعه أنواعاً من العذاب ، ويفتنونهم عن دينهم بكل ما استطاعوا من حول وحيلة ،

فلما رأى الرسول ما يُصنع بأصحابه – وهو غير قادر على حمايتهم مما يُسامون من سوء العذاب – أشار عليهم وذلك في السنة الخامسة من البعثة أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، فوقعت الهجرة إلى الحبشة بعد ذلك مرتين ، ويبلغ عدد من هاجر من أصحابه عليه الصلاة والسلام من حيث المجموع نحو مئة وعشرين نفراً .

وحين بلغ المشركين أن أصحاب محمد قد هاجروا إلى الحبشة ، وأصابوا هناك أمناً وعافية . تذمروا فاجتمعوا يتشاورون في أمرهم فاختاروا رجلين منهم وهما عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة ليذهبا إلى النجاشي ملك الحبشة ، ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم . فأتيا وقدّما إليه وإلى بطارقته هدايا كثيرة ، وقالا له : إنما قَدِمنا في أمر غلمان منا سُفها ، انضموا إلى بلادك راغبين عن ملة آبائنا فارفعهم إلينا نرجع بهم إلى بلادنا .

وهذه قصة طويلة ، وملخصها ، أن بطارقة النجاشي أنفسهم قاموا يشيرون عليه بأن يسلم المسلمين إليهما ،

ويردهم إلى مكة مخدوعين بما حشيا آذانهم من الأقاويل .
وكانت المرحلة حرجة وغاية في الخطورة ، فإن العودة آنئذ كانت تعني الوقوع في مخالب الأسد ثانياً ، ولكن الذي يرجع إليه فضل إنقاذ المسلمين من سلبيات هذه المرحلة الخطيرة هو « الدعوة » تلك التي قد حملها أولئك الفقراء معهم ، من موطنهم إلى مهجرهم .

وفي نهاية المطاف ، استقر الرأي على أن يُحضَر المسلمون في مجلس النجاشي ، ويخبروه ما هو الدين الذي أتاهم به النبي العربي فقام عند ذلك جعفر بن أبي طالب ، وألقى خطبة في المجلس الملكي ، وقد ذكرت هذه الخطبة في كتب السيرة كلها ، ثم تلا جعفر عليهم صدراً من سورة مريم ، وروايات هذا الخبر تقول : إنه لما سمع الملك وبطارقته ما سمعوا اغرورقت عيونهم بالدمع ، وانسابت دموع الملك حتى أخضلت لحيته ، وبعد ذلك أمر النجاشي أن يُردّ على الرسولين ما جاءا به من الهدايا ، ورد على المسلمين ردّاً كريماً ، وأمنهم وخرج عبد الله بن أبي ربيعة

وعمرو بن العاص من عنده مقبوحين ، وأقام المسلمون بخير دارٍ مع خير جار .

إسلام عمر بن الخطاب :

وحتى السنة السادسة من البعثة النبوية كان قد دخل في الإسلام عدد ملحوظ من أهالي مكة ، ولكن بما أن معظم هؤلاء المسلمين كانوا من الطبقة المستضعفة ، لذلك لم يكن الإسلام قد بلغ من العزة والشوكة درجة تمنعه صلاحية الإرهاب وفرض الهيبة على الآخرين ، وتأمين من يعتنقه ، ومكث الحال على ذلك إلى أن تم انفتاح هذا الباب هو الآخر ، للمرة الأولى ، وإنما الفضل في ذلك راجع – أيضاً – إلى « الدعوة » . فقد كان من دعاء رسول الله ﷺ بمكة : « **اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين** » وبعد ذلك كان رحى الأيام تدور ، وصروف الدهر تتقلب إلى أن كان اليوم الذي أعلن فيه أبو جهل وهو سيد مكة إذ ذاك لمن قتل محمداً مائة ناقة ، وكان عمر ابن الخطاب من أقوياء أو قل عمالقة مكة ، شديد البطش والشكيمة ، لا

يرام ما وراء ظهره . فخرج بعد أن سمع هذا الإعلان متوشّحاً سيفه ، يريد رسول الله ﷺ ليقتله ، ويحصل على المائة ناقة .

وبينما هو في بعض الطريق يمشي ، إذ بلغه أن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد ارتدّا عن دين آبائهما ، ودخلا في الإسلام فاستشاط عمرُ غضباً ، ورجع عامداً إلى بيت أخته ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته ، لتكفه عن زوجها فضربها ، فشجَّها . فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم ، نحن قد أسلمنا ، وآمنا بالله وبرسوله فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، وارعوى ، وتوجه إليها قائلاً : أخبريني بشيء عن هذا الدين الذي اخترتما فأعطته صحيفة وفيها سورة « طه » من القرآن ، فلما قرأ منها صدراً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » .

وعلى الجملة ، فإن عمر بن الخطاب قد عمد بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ ، حتى لقيه ، وآمن به ، وبايعه

على الإسلام ، وبما أن عمر رضي الله عنه ، كان رجلاً شديد الشكيمة ، لم يكن يرام ما وراء ظهره ، وقامته بلغت من طولها درجة جعلت رأسه يصطدم بالباب عندما دخل المسجد النبوي بعد تمام بنائه في المدينة . فلا جرم أن دخول شخص كهذا في الإسلام كان نصراً عظيماً للإسلام ولأهله . ولم يحصل هذا النصر العظيم للإسلام إلا عن طريق الدعوة ، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « إن إسلام عمر كان فتحاً ، ولقد كنّا ما نقدر على أن نصلي عند الكعبة ، حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة وصلينا معه » .

إسلام قبائل يثرب :

إن الإسلام دين بني على الفطرة ، وما من امرىء إلا وهذا الدين يقرع باب قلبه ، وفطرته تتجاوب معه ، فإن لم تكن ثمة من عقبة نفسية تحول بين المرء وفطرته ، فهو لا يتمالك أن يتّخذ إزاءه أي موقف سوى الخضوع لتصديقه والإيمان بحقيته ، ولقد كان أنصار المدينة (قبيلتي

الأوس والخزرج) خير نموذج تاريخي لهذا الموقف .

يروى أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، وكان قومه ليسمونه « الكامل » لجلده ونسبه ، وكان رسول الله ﷺ قد بُعث وأُمر بالدعوة ، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له رسول الله ﷺ : اعرضها عليّ ، فعرضها ، فقال : إن هذا حسن ، ومعي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله عز وجلّ نوراً وهدى . فتلا عليه القرآن ، فلم يبعد منه ، وقال : « إن هذا القول أحسن » .

ثم قدم أبو الحسير أنس بن رافع مكة ، ومعه رهط من الأوس ، وفي ذلك الوقت كانت نيران الحرب متّقدة بين الأوس والخزرج ، وكانوا قد جاؤوا ليلتمسوا الحماية من قريش على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله ﷺ أتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم : « **هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟** » قالوا : « وما ذاك » فذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم

القرآن ، فقال غلام حدث من الوفد يقال له إياس بن معاذ : « أي قوم هذا والله خير مما جئتم له » . غير أنهم لم يعتنقوا الإسلام عند ذلك الوقت ، وانصرفوا إلى المدينة .

وبعد ذلك خرج رسول الله ﷺ في الموسم يلقى فيه الوافدين من شتى قبائل العرب لزيارة الكعبة ، ويدعوهم إلى الإسلام ، كما كانت عادته في كل موسم ، فلقي أثناء ذلك عند العقبة رهطاً من الخزرج ، وهم ستة ر[illegible] ، منهم أسعد بن زرارة وآخرون غيره . وبعد فاتحة الحدب[illegible] ذكر لهم رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليهم شيئاً من القرآن ، وقد كان في نفوس هؤلاء شيءٌ مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة ، من يهودها ، عن بعثة نبي قَرُبَ وقت ظهوره ، فلما سمعوا كلامه عليه السلام ، لم يلبثوا أن عرفوا أنه ذلك النبي . فقال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه ، فأجابوه وصدقوه ، وأسلموا .

انتشار الإسلام في المدينة :

ثم انصرف هؤلاء عن رسول الله ﷺ بعد اعتناقهم الإسلام ، راجعين إلى بلادهم ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ، وأخذوا في تعريفهم بالإسلام ، حتى فشا بينهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر الإسلام ورسوله ، حتى إذا كان العام المقبل ، أتى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً ، وكانوا قد تأثروا بالإسلام من قبل ، فلقوا رسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى بيعة النساء ذلك أنّه كان مما بايعوه عليه في هذه البيعة – مع قبول الإسلام – أن يمنعوه عليه السلام مما يمنعون منه نساءهم ، وأبناءهم ، وهي المعروفة في التاريخ الإسلامي بيعة « العقبة الأولى » .

فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير ، وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، فكان يسمى في المدينة « المقرئ » . وفي ذلك الوقت كان من أبرز رؤساء المدينة أسيد بن حضير ، فلما

بلغه انتشار الإسلام في المدينة ، ثار غضبه ، ذلك بما خُيِّل إليه أن الذين قدموا من مكة ، إنما جاؤوا هنا لتسفيه ضعفائهم وصرفهم عن دين آبائهم ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ، وانطلق يبحث عن أمثال هؤلاء الناس ليزجرهم وينفيهم عن المدينة .

وبينما هو كذلك إذ رأى مصعب بن عمير في حائط ، وهو جالس بين أناس يعلمهم الإسلام فوقف عليه مُتشتِّماً ، وقال : إنّما جاء بكم إلينا أن تصرفوا ضعفاءَنا عن دينهم ، فقال له مصعب : أوَتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره . فقال : أنصَفت ثم ركز حربته وجلس إليه ، فكلّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه آيات من القرآن ، بعد أن سمع ما سمع ، لم يلبث أن تغير رأيه ، وقال : ما أحسنه وأجمله .. ثم قام ، واغتسل ، وطهر ثوبه ، وشهد شهادة الحق ، ودخل الإسلام .

وقد حدث مثل ذلك مع سعد بن معاذ ، ثاني

الرئيسين الكبيرين في المدينة إذ ذاك فهو - أيضاً - كأسيد بن حضير أغضبه انتشار الإسلام في المدينة إذ سمع عنه لأول مرة ، فأخذ حربته ، وانطلق إلى أولئك النفر ليزجرهم ، ولما انتهى إلى مصعب بن عمير ، قال له مصعب ، مثل الذي قال لأسيد ، ثم عرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام ، ثم قال لهم سائلاً : كيف تصنعون إذا أنتم دخلتم في هذا الدين ؟ فقال مصعب بن عمير : تغتسل وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلّي ركعتين ، فقام ، وفعل مثل ما قال . ودخل في الإسلام .

ثم أقبل عامداً إلي نادي قومه ، ومعه أسيد بن حضير ، فقال لهم : يا بني عبد الأشهل : كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً .. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله ..« فما أمسى في دار بني عبد الأشهل .. رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

إن قبائل المدينة كانت على بساطة الفطرة ، وكانت طبائعهم على أكمل درجة من السلامة والبعد عن التكلّف . ولم يكونوا يعلمون الإعراض عن الحق بعد إذ جاءهم وعرفوه ، الأمر الذي ساعد على تصعيد سرعة انتشار الإسلام في المدينة ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ، ونساء مسلمات .

ثم رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج معه سبعون رجلاً وامرأتان ، فلمّا فرغوا من الحج خرجوا – حسب موعد مسبق – للقاء رسول الله ﷺ ، أثناء الليل ، فبايعوه ، وهذه البيعة تسمى بيعة العقبة الثانية . ومن جملة التفاصيل التي وردت ضمن هذه القصة في كتب السير أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نفلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ..! إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ... » قالوا : فما لنا يا رسول الله إن نحن وافينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده ،

فبايعوه . (التفسير المظهري ، المجلد الثاني . ص ١١٢ - ١٠٧ باختصار وتصرف) .

الهجرة إلى المدينة :

كان العربي في قديم الزمان يقضي حياته في منعة من قبيلته ، وإن القبيلة كانت تتكفل بحمايته من اعتداءات الآخرين . والرسول ﷺ كان ينتمي إلى قبيلة بني هاشم ، التي كانت في ذلك الحين تحت رئاسة أبي طالب بن عبد المطلب ، ولمّا كانت السنة العاشرة من البعثة ، مات أبو طالب ، فعُهد بمنصب الرِئاسة بعد ذلك - طبقاً لعرف القبيلة - إلى أبي لهب ، ولكنّ أبا لهب بعد أن تولّى الرئاسة امتنع عن أن يقوم دونه عليه السلام ، وتخلى عن حمايته .

وقد كان ذلك أمراً شديد الخطورة ، فإن حرمان أي شخص من حماية قبيلته في تلك الأزمنة كان يعني إباحة دمه وكلّ ما يملكه وليس على من يعتدي عليه من سبيل أو خوف . وقد حدث فعلاً أن معارضيه عليه السلام لم يلبثوا بعد ذلك أن اجترأوا على إيذائه ، والاعتداء عليه كما

جاء في كتب السيرة أن قريشاً نالت من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

والآن كما هو ظاهر ، لم يعد بإمكان الرسول أن يقيم بمكة ، ولكن الوقت نفسه تمخض له عن إمكان جديد عظيم الشأن ، عن طريق الدعوة وهو أنه لما كانت السنة الحادية عشرة من البعثة قدم مكة جماعة من أهل المدينة لزيارة الكعبة ، ومن خلال تلك الفترة تأثروا بدعوته عليه السلام ، فاعتنقوا الإسلام ، وفي العام المقبل وافى الموسم آخرون في عدد أكبر من ذي قبل من سكان المدينة ، وبعد أن استمعوا إلى ما قرأ عليهم الرسول من القرآن أسلموا ، ولمّا تجهزوا للانصراف بعث معهم رجلين من مسلمي مكة (عبد الله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير) لتعليمهم القرآن والإسلام ، فلما انتهيا إلى المدينة ، تناولا الناس هناك بتلاوة القرآن عليهم ، وتبيين تعاليم الإسلام لهم وقد كانت أرض المدينة منبتاً حسناً لبذرة الدعوة الإسلامية فجعل

الإسلام يفشو في منازل الأنصار حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

ولمّا رأى رسول الله ﷺ أن المدينة قد توفرت فيها ظروف مواتية للإسلام أمر المسلمين بالخروج إليها ، وطفقوا يهاجرون ، حتى انتقلت غالبيتهم من مكة إلى المدينة ، ومن جانب آخر رأى مشركو مكة في هذه الظاهرة ضرباً من التهديد لهم ، إنهم ظنوا أن المسلمين إنما هاجروا للمدينة لكي يجعلوها مركزاً لعملياتهم العداونية ضدهم فقرروا ضرورة القضاء على رسول الإسلام قبل أن يأتيهم مسلمو المدينة بما يكرهون ، ولكن – الآن – لم يكن قد بقي لهم من الأمر من شيء ، فإن الليلة التي أرادوا فيها تنفيذ ما أرادوا من اغتياله عليه السلام – وفي الليلة ذاتها – فارق عليه السلام مكة ووصل إلى المدينة .

وعُقب ذلك دخل الإسلام في مرحلة تكوين تاريخي جديد في المدينة ، وإن الذي قد شق الطريق نحو تكوين هذا التاريخ الجديد ، إنما هو « الدعوة » من غير شك .

مدى انتشار الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية :

أقام رسول الله ﷺ بمكة نحو ثلاث عشرة سنة ، ولم يزل بها حتى أرغمه ما نصب له أهل مكة من عداوات ومضايقات عنيفة على مفارقة مكة والهجرة إلى المدينة ، ولكن ذلك لم يخفف من حدة غضب المشركين في مكة شيئاً ، بل زادهم غيظاً وحقداً وخُيّل إليهم أنهم لو تركوا المسلمين وشأنهم غير مكترثين لأمرهم فلا يبعد أن يزدادوا قوة وجرأة عليهم ، وليشنوا الهجوم على مكة إذا وجدوا الفرصة لذلك في يوم من الأيام فما لبثوا أن بادروا بأنفسهم على إيقاد نار الحروب والمعارك ضد أهل الإسلام فاحتدمت على إثر ذلك بعض معارك كبيرة مثل : بدر وأُحد . وأُخرى كثيرة مما يمكن تشبيهها بالاشتباكات أو المناوشات . ومن حيث المجموع يبلغ عدد هذه المواقع – على وجه التقريب – ثمانين موقعة .

لقد كانت الحروب تنشب تلو الحروب ، ولكن الوضع المتوتر بين الطائفتين ، أهل الشرك وأهل التوحيد لم

يزل قائماً كما هو ، إلى أن قام رسول الله ﷺ بوضع خطة دعوية دقيقة وفق التعليم الذي ألهمه الله تعالى ، وتلكَ هي الخطة التي تعرف بصلح الحديبية في التاريخ الإسلامي ، وقد ورد ذكرها في كتب الحديث كلها مفصلة .

وخلاصة القول ، أن وقائع وأحداثاً مختلفة انكشفت أخيراً عن المرحلة التي كانت مبدأ انعقاد مفاوضات الصلح بين الرسول ﷺ والمشركين في موضع الحديبية . وقد اقترح عليه الصلاة والسلام ، أن يتعاقد الطرفان على اتفاقية سلمية (NO-WAR Pact) لمدة سنوات عشر ، أما مشركو مكة فلما دُعوا إلى التفاوض حول هذا الاقتراح ، لم يرضوا به طواعية بل اشترطوا لتوقيع هذه الاتفاقية السلمية شروطاً اتسمت بالانحياز الكلي إلى طرف واحد ، فمن ذلك مثلاً أنهم قالوا : إن الرسول وأصحابه يرجعون عامهم من الحديبية إلى المدينة من دون أن يدخلوا ، ويطوفوا بالبيت ، وأن من أتى المسلمين من قريش ردوه عليهم وفي المقابل فإنّ من قدم قريشاً من المسلمين لم يردوه عليهم ، وقد وصلت بالمشركين النخوة والحمية درجة لم

يرضوا معها أن يكتب في وثيقة الصلح « محمد رسول الله » وأبوا إلا أن يكتب محمد بن عبد الله ، وما إلى ذلك من شروط وأحاديث مشحونة بالإهانة والإثارة ، ولكن رسول الله ﷺ قابل انحيازهم الكلي بعدم الانحياز متذرعاً بالصبر والإعراض عن مواجهة حميتهم الجاهلية . فانصرف راجعاً من الحديبية بعد أن تعاقد مع المشركين على الاتفاقية السلمية للسنوات العشر إذعاناً لشروطهم ولم يكن الغرض من ذلك الإذعان الأحادي (وغير المنحاز) لشروط المشركين المنحازة - في هذه الاتفاقية - سوى أن يتمهد طريق الدعوة ويأمن ، وهكذا كان ، فقد « أَمِنَ الناسُ بعد ذلك ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان » (ابن كثير) .

والمسيرة الدعوية التي بدأت بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، أسفرت عن رفع وزيادة نسبة المنضمين من أفراد القبائل إلى الإسلام ، فبينما كان عدد المسلمين ذوي الكفاءة الحربية لا يتجاوز عند صلح الحديبية ألفاً ونصف ألف

مسلم ، فقد بلغت عدتهم في مدة أقل من سنتين اثنين ، إلى عشرة آلاف ، وعندما سار رسول الله ﷺ بجنوده إلى مكة ، لم يكد أبو سفيان يراهم حتى نادى بأعلى صوته : يا معشر قريش . هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

الدعوةُ قوّةٌ لا تُقهرُ ولا تُفنى :

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة ٦ هجرية ، ومنها خرج يريد مكة معتمراً ، وكان معه أصحابه البالغ عددهم أربعمائة وألف . ولم يزل يسير بهم حتى نزل الحديبية التي بينها وبين مكة تسعة أميال بعد خطب طويل ، وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة ، فبعثت برجالها إليه ليصدوه عنها فدارت بينه وبين رسل قريش مفاوضات استغرقت أسبوعين ، ولكنهم لم يرضوا ولم يسمحوا له بأن يدخل مكة ويزور البيت ويُتمّ العمرة حتى كان عليه السلام هو المنصرف نزولاً على ما اشترطت قريش من شروط اتفاقية الهدنة ، التي تسمى بصلح الحديبية في التاريخ .

وعلى إثر العودة من هذا السفر ، قام عليه السلام بتوجيه الكتب الدعوية إلى الملوك والرؤساء حَول بلاد العرب ، وقد كان ذلك في السنة السابعة من الهجرة ، وفيما يلي أسماء الذين وجهت إليهم تلكم الكتب :

هرقل	عظيم الروم	المنذر بن ساوى	صاحب البحرين
خسرو أبرويز	عظيم فارس	جيفر وعبد جلندري	شاه عمّان
النجاشي	ملك الحبشة	هوذه بن علي	صاحب اليمامة
المقوقس	ملك مصر والاسكندرية	الحارث بن أبي شمْر الغساني	صاحب دمشق

ومع أن بعض الأمراء تلقوا رسالته الدعوية بالكبرياء والشموخ ، واستحقوا الغضب الإلـٰهي على ما صنعوا بها ، ولكنها أيضاً كانت سبباً في دخول مهابة الإسلام في نفوسهم وتأثير دعوته في قلوب أكثرهم ، وإجابة العديد منهم ، فقد قال قيصر ملك الروم لبطارقته بعد أن تُرجم له مضمون كتاب النبي ﷺ : « فهلموا فلنتبع ، ولنصدقه فتَسْلم لنا دنيانا وآخرتنا » كما كتب صاحب اليمامة في جوابه مبدياً إعجابه بدعوته عليه السلام يقول : « ما أحسن ما

تدعوا إليه وأجمله » . إن الفترة التي لم يكن الإسلام فيها في موقف يمكّنه من التقدم والمبادرة ماديّاً ، كان في موقف يمكّنه - من الناحية الفكرية - من مخاطبة ملوك العصر بجرأة واقتدار . ولم يكن ذلك إلا معجزة من معجزات الدعوة ، ربما يمكن لعدوّ من أعداء الإسلام أن يضع عقبات في طريق مبادرة الإسلام المادية ، ولكن لا يمكن لأحد البتة أن يحول بين الإسلام وبين مبادرته الفكرية .

المدّ الإسلاميّ خارج الجزيرة العربية :

لم يلحق رسول الله ﷺ بربه إلا وقد كان الإسلام سائداً في الجزيرة العربية ، ولكن الأمم التي كانت تقطن البلاد المجاورة للجزيرة لم تكن تدين بدين الإسلام ، كما كانت لغتها وحضارتها تختلف تماماً عن حضارة الإسلام ولغته ، ولم يكن ذلك القطاع الجغرافي المترامي الأطراف الذي نسميه اليوم بـ « العالم العربيّ » قد ظهر إلى الوجود حتى ذلك الوقت . وقد كان هذا الوضع يشكّل خطراً مستقلاً بالنسبة لوجود الإسلام وبقائه ، والحقيقة هي أن

الإسلام لو ظلّ منحصراً في شبه الجزيرة العربية لم يكن بإماكنه أن يبقى على قيد الحياة في الأزمنة المتوالية ، ولكي يبقى الإسلام حقّاً حياة دائمة ومستقلّة ، لم يكن بدّاً من إظهار الدين الإسلامي ، وإعطاء لغته وحضارته الاعتبار الغالب على قطاعات مترامية من المعمورة ، و لم يكد ينقضي نصف قرب بعد وفاة الرسول ﷺ حتى تم تحقيق هذا الواقع هو الآخر . ولكن الحقيقة التى لا بدّ من ملاحظتها في هذا الخصوص هي أن العامل الأساسي الذي كان يكمن وراء إحداث هذا الحادث العظيم هو « قوة الإسلام الدعوية » دون قوته السياسية . والحقيقة أن القوة السياسية غير قادرة تماماً على إحداث واقع من هذا النوع ، ولو كان بإمكان القوة السياسية أن تحوّل الناس إلى دين غير الذي يدينون به ، فإن الهند ، وباكستان ، وبنغلاديش لكانت دولًا تدين بالديانة المسيحية .

وعلى إثر وفاة الرسول ﷺ أخذت الحروب تنشب بين المسلمين وبين الأمم القاطنة خارج بلاد العرب ، وفي

فترة وجيزة جداً استطاع الغزاة المسلمون أن يفتحوا مجموعة كبيرة من المناطق ما بين آسيا وأفريقية . إلا أنه من الحقائق الصارخة ، المعلومة لدى كل من له إلمام بالتاريخ ، أن هناك في تلك البلاد المفتوحة لم تتخذ – في يوم من الأيام – إجراءات إجبارية للتحويل الديني . لنأخذ مصر مثلاً ، التي فتحها المسلمون في عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه ، فقد كتب أحد باحثي الموسوعة البريطانية ، وهو يتوخى تسليط الضوء على تاريخ مصر ، يقول :

« إن المسلمين سرعان ما استولوا على أرض مصر بالفتح في سنة ٦٤٢ من الميلاد ، ولكنهم قد التزموا بشدة مبدأ التسامح الديني (Religious tolerance) إنه لم تكن ثمة من محاولة اعتداء أو إكراه ، بل و لم تكن "كذلك حتى ممارسة إقناع على الصعيد الحكومي ، لحث المصريين على اعتناق الإسلام ، إن الحكام العرب قد أخذوا على أنفسهم العهد بالحفاظ على الكنائس المسيحية » .

" There was no attempt to force, or erevento persuade, the Egyptians to convert to Islam. The Arabs even pledged preserve the Christian Churches " (6/487-88).

كذلك اعترف البروفيسور : ت . دبليو آرنولد ، في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) بتمسك فاتحي مصر المسلمين بأكمل ما يكون من التسامح : فكتب يقول :

« وليس هناك مما يدل على أن انضمام المسيحيين في مصر إلى الإسلام على ذلك النطاق الموسع ، كان نشئاً عن أيّ اضطهاد أو ضغط غير عادل من جانب الحكام الجدد (أي المسلمين)

" There is no evidence of their widespread apostasy to Islam being due to persecution or unjust pressure on th e part of their new rulers ".

كما كتب البروفيسور آرنولد في موضع آخر ، يقول :

« إن دخول المصريين في الإسلام ، لم يكن قط ،

نتيجة لأي نوع من الاضطهاد السياسي أو العسكري »

" These conversions were not due to persecutions " (110).

وهنا يعرض سؤال : كيف أمكن دخول أغلبية المصريين الساحقة في الإسلام مع أنه لم يكن هناك شيء من القهر والاضطهاد لحملهم قسراً على التحول الديني ؟ ولقد رد على هذا السؤال ، السيد آرثر كيت ، أحد خبراء الآثار المصرية ، قائلاً ، « لم يكن الذي أخضع المصريين هو السيف ، بل إنما كان الذي أخضعهم هو (القرآن) » .

" The Egyptians were conquerd not by the sword, but by the koran " Si Arthur Keith, Anew Theory of Human Evolution, London Watts & Co. 1950, P. 303.

وهكذا تجد في كل البلاد المفتوحة ، بدون استثناء ، أن أي نوع من الإجبار أو الاضطهاد لم يمارس قط ، لتطويع سكانها من غير المسلمين ، حتى يندمجوا في الدّين

الإسلامي . وإنما قوة الدعوة الإسلامية هي وحدها التي عملت على تسخيرهم ، وفي أمد غير بعيد جذبتهم إلى حظيرة الإسلام . إنهم كانوا يسمعون عن الإسلام أثناء احتكاكاتهم ، ومقابلاتهم اليومية مع المسلمين الذين دخلوا بلادهم كما أنهم تناولوا الكتب الإسلامية بالدرس والمطالعة مما جعلهم يكتشفون أن الإسلام أكثر منطقية وأقرب إلى العقل بالنسبة لما ورثوا عن آبائهم من الطقوس الدينية ، وأن تعاليم الإسلام على درجة أكبر من البساطة والقابلية للتطبيق العملي ، فاستجابة لهذا التأثر والانطباع ، انشأوا يعتنقون الإسلام ، ولم يزل عددهم يتزايد حتى ضم الإسلام أغلبيتهم ، وبالتالي تشكل في الخريطة الجغرافية ذلك العالم الذي يطلق عليه « العالم الإسلامي » .

إسلام الأتراك السلاجقة :

كان سلجوق أحد رؤساء أتراك الغُزّ ، قد قام بتجهيز جيش من القبائل ، وشنّ الهجوم على غربي آسيا ، في القرن الحادي عشر المسيحي ، وعلى يديه تأسست مملكة

قوية ، وطيدة الأركان ، امتد نفوذها إلى بلاد الأردن ، والشام ، والعراق وفلسطين ، وما إليها من البلدان التي كانت من قبل تحت سيطرة المسلمين ، فأرسى هناك السلاجقة الأتراك قواعد مملكتهم بعد أن أخضعوا جنود المسلمين لسلطانهم ، وكان ممن خلفوا من بعد سلجوق ، طغرل بك (المتوفى ١٠٦٣) وألب أرسلان (المتوفى ١٠٧٣) .

وفي هذا الحادث عظيم الشأن من حوادث التاريخ الإسلامي ، فإن أولئك الأتراك السلاجقة الذين كانوا في البداية قبائل اتسمت بالهمجية والبربرية ، لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا حماة للإسلام ، وذائدين عن حياضه إلى مدة تتجاوز قرنين . ولقد تمكنوا من توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم في العالم الإسلامي بأسره ، بعد أن قضوا على ما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة من خلافات ومشادّات . كما قاموا بتعمير مساجد كبيرة شامخة ، وبناء مدارس فخمة عامرة ، كما لعبوا دوراً هاماً

في صدد الغزوات المسيحية ضد الإسلام .

وهناك في مؤلفاتنا التاريخية ، تجد رصيداً ضخماً من البطولات والمآثر من هذا النوع ، تُعزى إلى السلاجقة ، ولكن هذه المؤلفات لا تَردُّ عليك بشيء إذا ما تساءلت : كيف ، وفي أي وضع قدر للسلاجقة اعتناق الإسلام ؟ وما الذي يكمن وراء ذلك ؟..

إن هذا الفراغ جدّ هائل ، فالتاريخ الإسلامي المدوّن بينما يزخر بحكايات وأقاصيص غاية في التفصيل فيما يتعلق بالوقائع الحربية والفتوحات السياسية لا يسمن ولا يغني شيئاً فيما يتعلّق بتفاصيل ذلك « الفتح الأعظم » المتمثل في تمكن الإسلام في قلوب الناس ، واستمرارية دخول الأقوام والشعوب في حظيرة الإسلام أفواجاً . إن كتب التاريخ الإسلامي المتداولة ، تفيدنا كثيراً عن « دولة السلاجقة » ولكنها لا تخبرنا بشيء عن « إسلام السلاجقة » .

وربما لا تجد في تراث الأدب الإسلامي بأكمله ، كتاباً جديراً بالذكر يتناول موضوع « تاريخ الدعوة » غير

كتاب واحدٍ ، وكاتب الكتاب يسمى : ت ، دبليو آرنولد . وقد كتب البروفيسور آرنولد - حين تناول الحادث المذكور - يقول :

" In the hours of its political degration, Islam has achieved some of its most brilliant spiritual conquests: on two great historical occasions, infidel barbarians have set thier feet on the necks of the followers of the prophert,— the saljuq Turks in the eleventh and the Mongols in the thirteenth century,— and in each case the conquerors have accepted the religion of the conquered " (p.2)-

« لقد قُيِّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية البالغة في الروعة والمثيرة للإعجاب ، على حين كان قد ألم به الانحلال السياسي ، فقد حدث في مناسبتين تاريخيتين كبيرتين أن الكفار المتبربرين وضعوا أقدامهم على أعناق أتباع الرسول محمد ، الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر المسيحي ، والمغول في القرن الثالث عشر المسيحي ،

ولكن كلتا الحالتين أسفرتا عن دخول الفاتحين في دين المفتوحين » .

إسلام التتار والمغوليين :

في قديم الزمان كانت عدة قبائل تقطن في تركستان (روسيا) ومنغوليا (الصين) يقال لها « التتر » وكان من رؤسائها جنكيزخان (١١٦٣ - ١٢٢٧) وقد كان رجلاً ذا كفاءات غير عادية ، جمع ألفي مناضل تحت قيادته وسار بهم من بلاد الصين حتى انتهى إلى إيران ، هازاً بفتوحاته أركان الدول جميعاً فيما بين البلدين .

وعقبه استمرت هذه القبائل قدماً إلى الأمام ، إلى أن طلع هولاكوخان (١٢١٧ - ١٢٦٥) وقام بإنجاز ما كان ينويه جده (جنكيزخان) من إبادة المملكة الإسلامية وتدميرها ، فقد قضى على العاصمة بغداد وخرّبها ، وقتل الخليفة العباسي (المستعصم بالله) شرّ قتلة ، ذلك بأن الأمراء التتر كان قد بلغهم من خوارزم شاه الملك المسلم شيءٌ أثار غضبهم ، فتصدوا للتطويح بالمملكة الإسلامية

وتصفيتها .

وقد كانت هذه الكارثة من أفظع وقائع التأريخ الإسلامي ، وقد بلغت مهابة التتر واستبدادهم في السيطرة على العالم الإسلامي لدرجة ، حتى صار يقال : « إذا قيل لك إن التتر انهزموا ، فلا تصدق » .

ومما يلاحظ أن هذه المشكلة بالغة الضخامة لم يمكن حلّها إلا عن طريق الدعوة . إن الغزاة التتر لمّا فرغوا من استنزاف دماء المسلمين بأقصى ما وسعهم ، غمرهم الهدوء ، وخمدت نيران عواطفهم الثأرية . وبعد ذلك أخذوا دين رعيتهم بشيء من الاعتبار ، وتناولوه بالتفكير فيه بجدية وإمعان ، وبما أن ثمة مناسبات كثيرة كانت تجمع التتر بالمسلمين ، وكان قد سيق إلى بيوتهم عدد لا يحصى من سبايا المسلمين رجالاً ونساءً ، ثم كانت بواعث شتى تحدو بتتري إلى أن يقابل مسلماً كل اليوم على الشوارع ، وفي الأسواق ، وما إلى ذلك من الأمكنة ، كما كان المسلمون أنفسهم يختلفون إلى بلاط الأمراء التتر ، فعن مثل

هذه الطرق المختلفة استطاع التتر أن يتعرفوا على الدين الإسلامي ، ويلمّوا بتعاليمه ومحاسنه .

وعلى إثر ذلك ، طفقوا يعتنقون الإسلام ، فأسلمْ أول من أسلم أمراؤهم وأشرافهم ، ثم تبعهم عامة التتر ، حتى دخلت أغلبيتهم في حظيرة الإسلام ، وذلك ما جعل الذين كانوا أمس قد هدموا صرح الإسلام يصبحون الآن بناة صرح الإسلام من جديد ، وقد كتب البروفيسور آرنولد ، حين أورد هذا الحادث الدعوي العظيم للتاريخ الإسلامي يقول :

« إن الفاتحين قد اعتنقوا دين المفتوحين » " The coquerors have accepted the religion of the conquered ".

وكتب البروفيسور فيليب حتى ، حين ذكر هذا الحادث في كتابه « تاريخ العرب » يقول : " The religion of the Muslims had conquered where their arms had failed (p.488) « إن دين المسلمين قد

حظي بالانتصار بينما كانت أسلحتهم قد باءت بالفشل » .

الدعوة قوة لا ينضب معينها :

إن الدعوة هي قوة لا تزال تتوفر لدى المؤمنين حتى ولو فقدوا أو سلبوا كل ما يملكونه ، وثمة في بلاد أفريقية مثال رائع يؤكد ذلك ، علاوة على ما فيه من دروس وعبر لمن أراد الاعتبار .. وقد تصدّى البروفيسور آرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) لعرض كيف كان امتداد نفوذ الإسلام إلى قبائل البربر في الجزائر ، وهذه القبائل كان أكثر الناس فيها ممن يدينون بالديانة الوثنية القديمة ، كما كان فيهم عدد غير كثير من المتدينين بالمسيحية .

كانوا يسكنون في مناطق جبلية ، ولإحاطة الجبال بهم كانوا في حصار ومنعة من الهجمات الخارجية ، ونتيجة لمزاجهم القبلي كانوا قد شربوا الاستبداد والحب الزائد للاستقلال الذاتي ، فما زالوا يصدون العناصر العربية من التسرب إليهم ، إلى مدة غير قليلة ، ولأجل ذلك كان هناك في طريق هديهم إلى الدين الإسلامي عقبات عديدة صعبة ،

وكان قد حاول رجال الصوفية لزاوية تسمى « ساقية الحمراء » المنتسبة إلى الطريقة القادرية ، أن يضعوا هناك قواعد نشاط تبليغي منظم إلا أنهم لم يتمكنوا من إحراز النجاح في محاولاتهم تلك ، وإنما الفضل في تمهيد الطريق نحو نشر الدعوة بينهم يرجع إلى المسلمين الأندلسيين الذين كانوا قد لجأوا إلى هذه الزاوية ، بعد أن نُفوا عن بلاد أسبانيا عقب سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢ ميلادية . إنّ شيخ الزاوية توسم فيهم الخير وأدرك أنهم أكفاء مؤهلون للغاية ، لمهمة التبليغ الشاقة ، تلك التي لم يكتب لجهود تلاميذه فيها نجاح ، وقبل أن يبعثهم لهذه المهمة ، خاطبهم بهذه الكلمات .

« إن واجبنا ، أن نحمل مشعل الإسلام ، إلى تلك البقاع والأصقاع ، التي ظلت محرومة من بركات الإسلام وحسناته ، وإن هذه القبائل قد زادها شقاء وسوء حال أنّها تفقد معاهد تقوم بتربية أبنائها على المباديء الخلقية ، كما لا يوجد هناك شيخ يعلمهم فضائل الإسلام ومحاسنه ، إنهم

ليقضون حياتهم كالبهائم ، جاهلين بكل ما يتعلّق بالله ، وما يتصل بالدّين ، فوددت أن أستثير حماسكم الإيماني ، وحميتكم الدينية ، لكي تضطلعوا بانتشال هؤلاء الناس مما هم فيه من وهدة الجهالة الباعثة على الرثاء قوموا وألهبوا شعلة شعورهم الإيماني ، التي أوشكت أن تخبو ، ولتوقدوا شرارتها الكامنة تحت الرماد. من جديد . وطهروهم من أدران المسيحية الفاسدة ، التي كانوا عليها من قبل ، والتي لم تزل عالقة بهم إلى الآن ، وأحيطوهم علماً بما يشتمل عليه ديننا القيم من حقائق نيّرة ، ومفاهيم سامية ، وأخبروهم بأن الإسلام – على العكس من الديانة المسيحية – دين الطهارة وإن الله وفق تعاليم سيدنا محمد المرسل إلينا بهذا الدين لا يحب ولا يقبل شيئاً غير طاهر .. وهنا لا يسعني إلا أن أعترف بصراحة ، أن في طريقكم هذا – الذي أنتم سالكوه – صعوبات وعوائق كثيرة ، إلا أني لست بقانط من فضل الله ولطفه بل إني على أكمل يقين أن حميتكم الإسلامية الغلابة ، وحماسكم الإيماني الجبار ، سيتغلبان على كل العقبات والصعوبات في نهاية الأمر .

فانطلقوا يا أفلاذ كبدي ! إلى هذه الأمة البائسة الشقية ، المتورطة في أوحال الجهل والكفر والوثنية ، وعودوا بها إلى سبيل ربها ، وهدي رسوله ، وبلّغوها رسالة النجاة والفلاح ، صحبكم الله ورعاكم » .

فانطلق هؤلاء المبلغون لابسين ثياباً وسخة بالية ، آخذين بأيديهم العصي ، متخذين هيئة جماعات متألفة من خمسة أو ستّة رجال ، وانتشروا إلى مختلف الجهات والأطراف ، واختاروا كهوفاً ومغارات بين الهضاب ، من مناطق غير مسكونة واتخذوا هناك بين الصخور والجنادل ، زاويا ومعابد ، وبعد زمن قليل اشتهروا في القبائل لورعهم وتنسكهم ، فبدأت هذه القبائل تختلف إليهم . وبما كان عندهم من معرفة بالطب ، والحرف اليدوية ، وما إلى ذلك من مهارات أخرى ذات فوائد كبيرة للحياة الاجتماعية ، ذاع صيتهم ، وصار لهم نفوذ عظيم في نفوس قبائل البربر ، حتى تحولت كل زاوية من زواياهم إلى مركز إسلامي للتعليم والدعوة وقد اجتمع حول أولئك الغرباء كثير من

الناس للاعتراف مما عندهم من ثروة علمية وفضائل أخرى ، وإن هؤلاء الطلبة هم الذين أصبحوا فيما بعد ، كوادر ، اضطلعت بنشر رسالة الإسلام بين بني جلدتهم ، حتى انتشر دينهم بين جميع قبائل البربر ، وتغلغل في كل منطقة من مناطق الجزائر . [كتاب : الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ : ١٢٩] .

الإسلام في جزر الملايو :

يبلغ عدد المسلمين في جنوب شرقي آسيا إلى مائتي مليون مسلم ، وفي أندونيسيا فحسب ، يبلغ عددهم مائة وعشرين مليون مسلم ، ومن غير شك أن هذا العدد يفوق كل قطر من الأقطار الإسلامية ، وأكثر النواحي روعة وتأثيراً في ضخامة عدد المسلمين في هذه المناطق ، هو دخولهم في الإسلام الذي لم يكن إلا عن طريق العمل التبليغي الخالص ، فإن المسلمين لم يتجهوا إلى هذه المناطق في يوم ما بأي هجوم عسكريّ .

وكان ظهور الإسلام في هذه المناطق بصورة واضحة

في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهذا القرن هو الذي طرأ فيه التدهور والانحلال على قوة المسلمين السياسية . كتب البروفيسور . ت ، دبليو آرنولد يقول : إن تاريخ جزر الملايو للقرون الستة الماضية لينطوي على فصل رائع جداً للتاريخ الإسلامي ، حيث كان الإسلام قد انتشر عن طريق الجهود التبليغية ليس إلّا » (ص ٣٦٧) .

إن القرن الثالث عشر ، هو القرن الذي سقطت فيه الدولة الإسلامية في أسبانيا ، وهذا القرن هو الذي كان الإسلام فيه يشق طريقه إلى السيطرة الفكرية على جزر الملايو . وقد كتب الدكتور كرافورد (Dr. Craw Ford) مشيراً إلى ذلك يقول : « إنه لمن غريب الصدف ، أن الدين الإسلامي كان يمتد نفوذه إلى آسيا ، في حين كان قد نفي عن البلاد الأوربية » " It may be remarked as a singular co-incidence that the Mohamedan religion was extending itself thus in Asia at very Time it was expelled From Europe ".

وكتب البروفيسور آرنولد في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » يقول :

« .. غير أن السنين المتأخرة ، أسفرت عن سقوط المملكة الإسلامية ، وانحلال قوة الإسلام السياسية ، إلى أقصى حد ، ولكن فتوحاته الروحية ، لم تزل مستمرة من دون أن يعوقها عائق . فعندما قام المنغوليون بالقضاء على بغداد في سنة ١٢٥٨ ، وأغرقوا مجد الخلافة العباسية في الدماء ، وعندما قام فرديناند في سنة ١٢٣٦ بإجلاء المسلمين عن قرطبة ، ودفع سلطان غرناطة المسلم إلى الملك المسيحي الخراج ، كان الإسلام قد تمكن من نفوذه إلى سومطرة ، وكان يخطو بخطوات موفقة نحو الاستيلاء على جزر الملايو لقد قُيِّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية ، البالغة الروعة والمثيرة للإعجاب ، في حين كان قد أحاط به الانحلال السياسيّ » (ص ٢) :

وكتب فان لير (Van Lear) يقول :

« إن أي شخص يدخل في تاريخ أندونيسيا ، فكأنما

هو يدخل في عالم مجهول تماماً ، إن الناس على العموم يظنون أن هناك قوة طلسمية « خارقة للعادة » هي التي كانت قد أدخلت سكان جنوب شرقي آسيا في الإسلام » .

نعم هناك قوة خارقة للعادة كانت تعمل وراء هذا المدّ الإسلاميّ . ولكنها لم تكن أية قوة طلسمية بل إنما هي قوة الإسلام الدعوية . ولا ريب أن القوة الدعوية الإسلامية ، تنطوي تحتها إمكانية جبارة لأن تجتذب الناس إليها ، وتضطرهم إلى الدخول في الإسلام .

لقد دخل الإسلام في هذا المناطق بأيدي التجار ، وإن ما يتصف به التاجر من سلوكيات هي نفسها سلوكيات الداعي وخير الدعاة من يعامل المدعو بما يعامل به التاجر زبائنه ، ومثل هذا الداعي لا يمكن أن تبوء مهمته بالفشل . وقد كتب إليكس دي توكوفيل (Alex de Toqueville) :

« إن التجارة تقتلع جذور عواطف العنف والتعسف ، وهي تستحب القصد والتراضي المتبادل ،

والتاجر يتحرز بشدة من أن يُعرض عن زبائنه وهو في حالة الغضب ، إن التاجر يكون صبوراً أيما صبر ، والتجارة هي التي تخلق في صاحبها مثل هذه الصفات النبيلة ، لذلك قال بعض المفكرين : إن الله يجعل من التجارة وسيلة للتبليغ عنه .

''God making commeree His missionary''

الدعوة الإسلامية في القرن العشرين :

إن القرن العشرين – من ناحية – هو قرن الحركات الإسلامية ، ففي هذا القرن ، قام المسلمون بإثارة حركات عظيمة الشأن ، لا يأتي عليها الحصر ، وهذه كلها كانت حركات قد غلب عليها الطابع السياسي والثوري ، مع تفاوت درجة الغلبة بين واحدة وأخرى ، وقد بلغ – من حيث الكمية – ما تمتعت به هذه الحركات من عدد ضخم من الأتباع والأنصار ورصيد هائل من الوسائل والإمكانيات ، درجة كافية لتمكينها من الظفر بالنجاح ، ولكن هذه الحركات لم تلبث – رغم امتداد نفوذها ،

وانتشارها بين قطاعات شاسعة من الناس – أن باءت بالفشل والإخفاق . ولم تنل الأمة منها أية فائدة إيجابية من أي نوع . إن هذه الحركات قد هبّت كالزوابع الهوجاء ، وتلاشت في الفضاء كأنها فقاقيع .

إن هذا الوضع المأساوي للمسلمين في القرن العشرين ، كان من الناحية السياسية ، أما من الناحية الدينية ، فإننا نرى في هذا القرن بعينه أن قوة الإسلام الدعوية ما زالت تجتذب وتسخر كتلاً من السكان في كل قطر من أقطار العالم غير أن القادة والزعماء الإسلاميين ، لم يوجهوا شيئاً يذكر من جهودهم وطاقاتهم صوب الميدان المتصل بالدعوة الإسلامية ، ومع ذلك فالإسلام بفضل ما يتمتع به من قوة وجاذبية ذاتية ، لم يزل يتمكن قلوب العالمين .

والذين وُفقوا إلى اعتناق الإسلام ، خلال المائة سنة الماضية ، في شتى أرجاء العالم ، يتجاوز عددهم الملايين . وفيما يلي نعرض قائمة نموذجية ، تتضمن أسماء العديد

منهم ، وقد أثبتنا مقابل الأسماء سنيّ دخولهم في الإسلام . وهذه القائمة ستؤدي إلى تقدير كيفية استمرارية اهتداء الناس إلى الإسلام في كل دور من أدوار القرن الماضي .

1	Prof. Haroon Mustafa Leon	England	1822	
2	Mohammed Alexander Russled Webb	U.S.A	1890	
3	Dr Nishikanta Chattopadhya	Hyderabad	1904	
4	Lord Headly al-Farooq	England		1913
5	Dr William burchell B. Pickard	England	1922	
6	Sir Abdulla Archibald Hamilton	England	1923	
7	Mohammad Marmaduke Pickthall	England	1935	
8	Mohammad Leopoled Asad	Austria	1926	
9	Dr Abdul Karim Germanus	Hungary		1940
10	Dr Ali Mohammad Mori	Japan		1947
11	Dr Ali Selman Benoist	France		1955
12	Dr R.L. Mellema	Holland		1955
13	Ibrahim Khalil Phillips	Egypt		1960
14	Prof. A.H.B. Heweet	U.S.A		1966
15	Umar Bongo (Preśident, Gabon)	Gagon		1973
16	Dr Roger Garoudy	France	1982	
17	Moosa Fondi	Tanzania		1986
18	Abdullah Adiar	Madras	1987	

كل هؤلاء من الذين قاموا بدراسة الإسلام بناءً على رغبة ذاتية أو جهود شخصية ، وأسفرت هذه الدراسة عن تأثرهم العميق بتعاليم الإسلام لدرجة أنهم لم يلبثوا أن اعتنقوه . وقد تعلم عديد منهم اللغة العربية حتى يتمكنوا من فهم الإسلام بصورة مباشرة ، إن القرن العشرين بالنسبة للمسلمين على الصعيد القومي قرن الخيبة والخسران ولكن الإسلام في هذا القرن نفسه ، كان ولا يزال يخطو بخطًى حثيثة نحو الأمام .

كلمة أخيرة :

إن التاريخ الإسلامي بأكمله يؤكد على أن أكبر ما يملكه الإسلام من قوة هو « الدعوة إلى الإسلام » ، إن الإسلام يطابق الفطرة الإنسانية مطابقة تامة ، وإنه لو عرض على الإنسان في صورته الأصلية ، فلا يلبث أن ينفذ إلى قرارة نفسه ، ويتمكن من صميم قلبه ، وهو يجعل المرء مضطراً إلى أن يعترف بحقانيته ، إن الحقيقة هي أن الإسلام في ذاته يحمل قوة تسخيرية ذاتية لدرجة أنه يضطر الناس

إلى التأثر والإعجاب به .

ولكن هذه القوة لا تعمل عملها إلا إذا أزيلت كل العراقيل النفسية بين الإسلام ومخاطبيه . وقد كان المسلمون في القرون الأولى يدركون هذا السرّ ، إذ تمسكوا بمبدأ التسامح بصورة عامة حيثما دخلوا من البلاد والأمم فاتحين ، واعترفوا لكل واحد بالحرية الكاملة فيما يتعلّق بدينه ، وكانوا يعلمون أنهم لو فتحوا صراعاً طائفياً مع هذه الشعوب ، أو تناولوا الناس بالاضطهاد والقهر في أمر الدين ، فلتأخذنهم الحمية بالعناد والتعنت ، مما يقودهم إلى إنكار أمر غير قابل للإنكار . وقد اعترف المؤرخ الإنجليزي الشهير ، هنري توماس بكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) للمسلمين الأوائل بهذه الحكمة والتدبر بكلمات واضحة ، حين قال : « إن الدعاة الإسلاميين لعلى جانب عظيم من الحكمة والروية » .

“The Mohammetan missionaries are very judicious” P. (409).

وفي كتاب (The Preaching of Islam) للبرفيسور آرنولد ، توسع كاتبه غاية التوسع في عرض أن المسلمين في القرن الأولى ، قد التزموا في كل الأماكن والبلاد ، بمبدأ التسامح الديني أشدّ التزام ، وبالرغم من امتلاكهم أزِمّة السلطة السياسية لم يتصدوا قط لإثارة الخلافات الدينية ، مع الشعوب غير المسلمة ، وإن هذا لهو السبب الأكبر في أن جزءاً كبيراً من المعمورة في العصر القديم ، انضوى تحت الدّين الإسلامي .

كذلك اليوم يمكن أن تبرز هذه القوة الدعوية للإسلام ، بكل ما تنطوي عليه من إمكانات تسخيرية ، ولكن ذلك منوط بأن يبادر المسلمون المعاصرون بالقضاء على جميع تلك الصراعات الطائفية التي فتحوها مع جيرانهم من غير المسلمين في كل بقعة من العالم ، إن هذه الصراعات الطائفية والتي أطلق عليها « الجهاد » خطأً لأكبر عائق في سبيل بروز القوة الدعوية للإسلام ، ويوم أن يتم القضاء على تلكم الصراعات ، سيأخذ يومئذ الفيضان الدّعوي للإسلام في التدفق ، وسيبقى يتدفق حتى يبلغ إلى

منتهاه .

إنّ لكل مجموعة بشرية ، نظامين ، نظام للعقائد ، ونظام للسلطة ، إنّ المسلمين المعاصرين تخلّفوا اليوم عمّن دونهم من الأمم والشعوب بالنسبة لنظام السلطة ، ولكنهم ما زالوا أقوى من شعوب العالم حتى اليوم بالنسبة لنظام العقائد . إلا أن القادة الإسلاميين في سائر أنحاء العالم ، خائضون في صدام مع الشعوب الأخرى في الميدان المتصل بنظام السلطة حيث لا ولن يعود عليهم بشيء سوى الهزيمة والنكسة والدماء ، ولو أنهم تخلوا عن هذا الصدام العقيم ، وجعلوا من الشعوب الأخرى مخاطبين لهم في الميدان المتصل بنظام العقائد فسرعان ما يشاهدون تاريخهم الراهن المليء بالنكسات والهزائم ، قد تغيّر إلى تاريخ الفتح .

فالنهوض ، النهوض بالإسلام كقوة فكرية ، فإنّ ذلك مما يُسفر فيما بعد عن اتخاذه الاعتبار الغالب على الدنيا من الناحية الفكرية ، وتأتي النواحي الأخرى تبعاً لذلك ..

إذا قدر لأحد أن يكون طبيباً أخصائيّاً ، ثم هو لا

يوظف كفاءته وإمكانياته في مجال اختصاصه ، بل يهدر أوقاته في مجال السياسة ، فلا شك أن أصدقاءه سيوجهون إليه النقد اللاذع قائلين له : إنك تضيع أوقاتك الثمينة في أمور تافهة ، بينما كان عليك أن توظف مادرسته في المجال العملي لاختصاصك ، حتى تعيش حياة كريمة عزيزة .

نفس الأمر ينطبق على المسلمين في العصر الحاضر ، فهم في الأصل أمة داعية ، تمتلك الحقيقة التي لا يمتلكها الآخرون ، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول وفقاً للمصطلح التجاري ، إن المسلمين يملكون (Monopoly) في الساحة الدينية ، فهم وحدهم بين الأمم يمتلكون الصدق الأصيل الذي لم تشبه شائبة التحريف والتبديل ، ودينهم هو الدين التاريخي بكل معنى الكلمة ، في حين أن الديانات الأخرى هي عبارة عن مجموعة من الخرافات والتقاليد الموروثة ، فليس ثمة أي دين – عدا الإسلام – يملك المصداقية التاريخية .

وبهذا الاعتبار كان على المسلمين أن ينهضوا بدينهم ،

غير أن المسلمين المعاصرين إنما يقومون بأعمال أخرى غير واعين بهذا الأمر ، ففي الدول الإسلامية مثلاً ، هم يثيرون ضجة سياسية ويخوضون في التناحر مع الحكام الذين تحولوا في نظرهم إلى أعداء نتيجة ردود الفعل ، ونجم عن ذلك ضياع فرص الدعوة في كافة الدول الإسلامية تقريباً .

إن هذا الوضع يتحمل مسئوليته قادة المسلمين الذين جعلوا الإسلام عنواناً للصراع مع الحكام ، أولئك الذين راحوا يحسون من جراء ما يلاقون من نشاطات غير إيجابية بأن الإسلام يمثل خطراً سياسياً بالنسبة لهم ، فتحولوا إلى أعداء للحركات الإسلامية . وفي الدول غير الإسلامية ، حيث يمثل المسلمون الأقلية ، قام قادة المسلمين بنفس العمل الذي قام به القادة في الدول الإسلامية ، ففي كلا الجانبين تجري صراعات غير مجدية ، ضاعت من جرائها فرص الدعوة ، مع فارق بسيط بينهما ، وهو أن الصراعات التي تجري في الدول الإسلامية كانت باسم إقامة النظام السياسي للإسلام ، بينما تجري في الدول غير الإسلامية

لإثبات الهوية القومية للمسلمين .

إن ذلك العمل بنوعيه باطل دونما شك ، والدليل على ذلك الفشل والإخفاق الذي يلاقيه رغم توافر العدد الكافي والإمكانيات الهائلة ، ويبدو من ذلك كأن الله حكم عليهم بالفشل والإخفاق ولو وضعوا الجبال والبحار فوق ظهورهم .

والحقيقة أنه ثمة أمر واحد ينبغي أن يقبل عليه المسلمون ألا وهو أمر الدعوة إلى الله . إن نجاحهم في الدنيا وخلاصهم في الآخرة يرتبطان بهذا الأمر ارتباطاً كلياً ، وهذه هي المسئولية التي ألقى الله على عاتقهم للأبد . فإذا ما نهضوا بذلك العمل فسوف يجعلون أنفسهم أحق برحمة الله الواسعة ، وإذا تخلفوا عنه فإنهم سيقعون في قبضة الله ، والحركات التي فجروها باسم الإسلام سوف لن تنقذهم من قبضته تعالى .

الفهـــــرس

عنوان المؤلف

ISLAMIC CENTRE

C - 29 NIZAMUDDIN WEST

NEW DELHI - 110013 INDIA

TEL 697333 / 611128

إنّ لكل مجموعة بشرية ، نظامين ، نظام للعقائد ، ونظام للسلطة ، إنّ المسلمين المعاصرين تخلّفوا اليوم عمّن دونهم من الأمم والشعوب بالنسبة لنظام السلطة ، ولكنهم ما زالوا أقوى من شعوب العالم حتى اليوم بالنسبة لنظام العقائد . إلا أن القادة الإسلاميين في سائر أنحاء العالم ، خائضون في صدام مع الشعوب الأخرى في الميدان المتصل بنظام السلطة حيث لا ولن يعود عليهم بشيء سوى الهزيمة والنكسة والدماء ، ولو أنهم تخلوا عن هذا الصدام العقيم ، وجعلوا من الشعوب الأخرى مخاطبين لهم في الميدان المتصل بنظام العقائد فسرعان ما يشاهدون تاريخهم الراهن المليء بالنكسات والهزائم ، قد تغيّر إلى تاريخ الفتح .

الناشر

الرسالة للإعلام الدولي

٧ ش الشيخ محمد النادي ـ مكرم عبيد ـ مدينة نصر

✆ ٢٦٢٢٣١٠٥ - ٢٦٢٨٤٩٩ - ٢٦٢٢٨٤٠